النافذة

للكاتب الفرنسي بيير لويس

بقلم السيد عز الدين عزوزي

سأحدثك في هذا المساء ياصديقي العزيز عن سبب امتناعي عن الزواج ، لأنني طالما رأيتك مهتماً لمعرفة ذلك ؛ وإن سؤالك هذا لأحب إليّ من صمت الآخرين الذي أجد فيه من الخفايا مايجرح كبريائي

ليس أحد في الواقع يجهل ما عليه أسرتي من الغنى وما خلفه والدي من الأموال الكثيرة ؛ وإذا لم تتزوج فتاة غنية مثلي فإن سبب ذلك يكون في الغالب : إما طمعها ، وإما قبحها ، وإما عاداتها وأخلاقها . وأنا أترك للناس محض الاختيار في أن يحكموا عليّ بجميع تلك الفروض ، أو أن يختاروا واحداً من بينها

ثق بأنني ما رفضت يد الراغبين في الاقتران بي لشيء في أنفسهم ؛ لا ، لا ... إنني ابتعدت عن الزوج الشرعي وعن الخليل ؛ وكان ابتعادي عنهما ممزوجاً بخوف لا أدري له تعليلاً ، ولكن هذا الخوف أخذ يقل في هذه الأيام ؛ ذلك من فعل الأربعين ، وطمأنينة الكِبَر ، وشعوري بأن الناس قد انصرفوا عني انصرافاً كلياً ، ولم يعد يعنيهم من أمري شيء

إن قصتي ليست قصة حب بائس . لا ... أنا لم أحب في حياتي أحداً قط

لقد أصبحت ، يا عزيزي ، عجوزاً في مساء يوم كان عمري فيه سبع عشرة سنة ! أصغ إلى ما سأقوله لك فإن قصتي سوف لا تكون طويلة فتمل استماعها !

قد تستغرب وتتساءل لماذا سلبني هذا الحادث البسيط كل أفراح المستقبل ، وإنك لتقرأ كثيراً من أمثاله في الصفحة الثالثة من كل جريدة !

لقد كنت متأثرة به في كل حياتي ، لأنني شهدته أمام عينيّ وعلى بعد خطوة مني ؛ وأنا متأكدة من أنك سوف لاتشعر بشيء مما شعرت به لأنك ستسمعه كما تسمع حكاية من الحكايات أو قصة من القصص !

* * *

وضعت الآنسة «ن» جبهتها على يدها وابتدأت تقص عليّ الحادث ونظرها مثبت في الأرض لاترفعه إلى وجهي لحظة قالت :

« منذ خمس وعشرين سنة كنت أقيم مع والدتي في نزل قديم مقابل كنيسة « سانت سُلبيس » في ضواحي باريس ؛ وكان هذا النزل خاصاً بالطبقة الراقية ، على بساطة في مظهره وتواضع ، وكانت جميع نوافذه تطل على شارع ساكن كسكون ممر في غابة من الغابات .

كان الفصل فصل صيف ، وكانت غرفتي التي أنام فيها مع والدتي شديدة الحرارة ذات مساء ، حتى أنني لم أستطع أن أنام ، فخطر لي أن أفتح النافذة ، ولكنني خشيت أن أوقظ أمي . وبعد أن

أرقت ساعة بكاملها نهضت من سريرى ولبست جوربى ، ونزلت السلم العريض مرتدية قميص النوم حتى وصلت إلى ردهة الطابق السفلى . ولا بد من أن تعرف جيداً موقع الردهة كي تتبين الحادث كما وقع بحذافيره .

كان للمنزل سابقاً حديقة تمتد على موازاة الشارع ، ثم بيعت هذه الحديقة لبعض البنائين ، وأخذت البلدية منها قسما جعلت به الشارع فسيحاً أكثر من ذى قبل .

كانت نافذة من نوافذ الردهة تنفتح عن زاوية مظلمة خفية لا تصل أشعة (الغاز) إليها ، ولا يستطيع المرء أن يتبين ما فيها ، ولو خرجت عينه من محجرها لشدة التحديق !

لما وصلت إلى الردهة التفت فرأيت أنهم لم يغلقوا هذه النافذة الرهيبة ، وإنما أغلقوا مصراعيها الخارجين ، فصعدت إليها ، وجلست فوق عارضتها إذ كانت قواى قد وهنت من شدة الحرارة ، وأخذت أستنشق برودة الليل بنهم ، فأحسست أنها سرت فى جميع جسدى ، من أم رأسى إلى إخمص قدمى !

لقد كانت هذه اللحظة هى الأخيرة من لحظات حياتي التى شعرت فيها بسرور صاف لا يكدره أسى ولا تشوبه شائبة ذعر أو قلق !

لم أكد أترك مكانى حتى رأيت فى الجهة المقابلة للمكان الذى أنا فيه شخصين : رأيت رجلاً يقود فتاة إلى هذه الزاوية المظلمة الخفية !

كان الرجل من أولئك الذين يعملون ثلاثة أسابيع ويتعطلون بعدها ستة أشهر ، لأن جمالهم يخولهم احتقار العمل الشريف ، وكانت الفتاة جميلة ريانة فاتنة فى الخامسة عشرة من عمرها ؛ تحبها أمى وتعطف عليها وتغمرها بإحسانها ، لكثرة ما تشترك معي فى أعمالى

كانت لابسة ثوباً أسود قصيراً جداً ، وقميصاً رمادياً ، ورافعة ضفيرتها الصغيرة فوق رأسها الأشقر ، وكان الرجل ممسكا بكتفيها يقول لها فى لهجة المستعجل :

— وهنا هل تريدين ؟

فتجيب جواباً مذعوراً :

— دعنى ... دعنى

يا عزيزى ، لو قدّر لك أن تسمع جوابها له لقلت إنها تعيده للمرة المائتين

قال لها الرجل : ألم تقولى نعم ؟ لماذا تنقضين قولك ؟ إننا هنا فى مكان مناسب ، لماذا لا تودين ؟

— لا ... ليس هنا ... ليس هنا

— إذن أين تريدين ؟ أنت لا تحبيننى ، كما أننى أصبحت الآن لا أحبك !

أشارت الفتاة إليه إشارة السلب ؛ فاشتد غضبه وصاح بها : « تى تين ، انظرى إلىّ . تكلمي فى وجهى . هل تصدقيننى فى حبك ؟ نعم أو لا ؟ إذا كان لا ، فأنت تعلمين أن لدىّ كثيراً غيرك من الفتيات الجميلات

لم ينته الرجل من كلامه حتى انفجرت المسكينة تبكى بكاء مرًّا طويلا ، وهى متكئة على عارضة الشباك حيث كنت مستندة بكتفى ثم قالت له :

— نعم ، إنى أحبك حباً جماً ، ولكن ليس لهذا الأمر ، ليس لهذا الأمر ... آه لا أدرى كيف أكلمك ، ولكن ليس هذا هو الحب . أحبك لأنك لطيف ... لأنك تكلمنى على غير ما يكلمنى الآخرون ؛ لأننى أشعر بسرور وفرح عميق ساعة أراك عائداً إلى المنزل فى المساء . إننى أحب أن أعانقك . أعانقك قدر ما تريد فى كل مساء ، فى أى وقت تحب . ولكن منذ أخذت تكلمنى فى هذه الأمور ... لا ... لا أريد . على الأخص مع رجل مثلك يخيّل إلىّ أن العاقبة تحمل فى طياتها شرًّا مروّعاً ! !

رفع الرجل أكتافه ولفت رأسه لفتة استخفاف ورحمة وقال : لك الله من ساذجة مقدسة !

وحدثها بكثير من الأقوال التى أخجل أن أذكرها لك ؛ ثم سحب من وسطه سكين جزار تشبه سيفاً وغرزها فى النافذة فى محاذاة صدرى وقال لها بصوت يخنقه الاضطراب :

— والآن ... إذا وثبت من هذه النافذة فإننى أخزك !

كان مشهد الفتاة وقد توترت أعصابها وتقلصت أطرافها قاسياً ، وكان الشارع خالياً من كل إنسان والحقل ساكناً سكوناً عميقاً ، والساعة تدق الثانية بعد نصف الليل !

كل شىء نائم فى هذا الحي إلا هذين الشخصين ، وإلا أنا المتفرجة المفزعة ؛ كانت الفتاة أمامى حتى لو أننى مددت إليها بعض أصابعى لاستطعت أن أمسها وهى تقاوم الرجل بشدة وعنف

ثم انطوت على نفسها وحنت رأسها الصغير الأشقر ، واصطكت ركبتاها ، وأخذت تلهث كالحيوان التعب ؛ وكانت كلما أمسك الرجل بذراعيها ضمت فخذيها ، وكلما مس ثوبها نازعته بيديها . ولقد ظلت على حالها هذه زمناً طويلاً أكثر مما تتصور ، ولكنها غلبت أخيراً على أمرها كما غلب (كارون) الراعى وأرداه صريعاً

عند ذلك أخذت المسكينة تضرب الفضاء بيدها وتتعلق ببعض النبات المزروع فوق النافذة

* * *

لم تكن الفتاة لتعلم أنها تمسك بيدها سكيناً وأنها تدفع بها للمرة الأخيرة ذلك الرجل الذى جرحها فى جسدها وفى روحها جرحاً لا يلتئم . إنها فعلت ذلك دون قصد منها ولا وعى

يا أسفا ! أى شىء هو جسد الانسان ! إنه طين رقيق مائع يسيل من ضربة واحدة !! لقد دخلت السكينة فى عنقه وخرجت تلمع من طرفه الآخر !

ثم انبثقت نافورة دم وخرجت من شقوق النافذة وانصبت على مئزرى لترويه

غص الرجل بالسكين فجحظت عيناه وفتح فماً مخيفاً ، ولم يتنفس الصعداء ، ولكنه لما وقع على وجهه ، أرسلت — هى القاتلة — فى سكون الشارع ثلاث صرخات كلها ذعر وهول . ثم تراجعت إلى الخلف وأخذت تثب فى مكانها كما يثب عصفور أسود

وأيم الله لم أسمع فى حياتى كلها صرخات تفعل بالنفس مثل صرخات الموت هذه !

* * *

أما الذى حدث بعد ذلك فإنه لا يهمك كثيراً أليس كذلك ؟

إن أمي استيقظت وهي مذعورة ، وانطلقت تبحث عنى خائفة وجلة ؛ ولما التفتت إلى سريرى ووجدته خالياً نادتنى باسمى فى جميع نواحى المنزل فوجدتنى واقفة فوق ذلك الشباك ، وثوبى ملوث بدم القتيل الأحمر فخالته دمى للوهلة الأولى ... ولكننى لم أقص عليك هذا الحادث لأبين لك هول موقفى من أمي

إن بقية الحادث وتفاصيله الدقيقة لا تزال تروى أعماق ذكراى ...

كانت سنى سبع عشرة سنة ، وفى نصف ساعة تعلمت فيها من هذه الفتاة كل شىء . أنا الطفلة التى كنت أجهل كثيراً من أمثال هذه الحقائق

تعلمت فيها كل أسرار الحياة والحب والموت وكل ما تسميه القصص بـ « الأمنية » . تعلمت منها من هو الرجل العاشق ، وأخيراً من هو الرجل الذى يموت !

يا عزيزى إذا كان كثير من الناس يجهلون لماذا فضلت أن أعيش دون شريك ، فلتكن أنت وحدك الذى يعرف سبب ذلك ! !